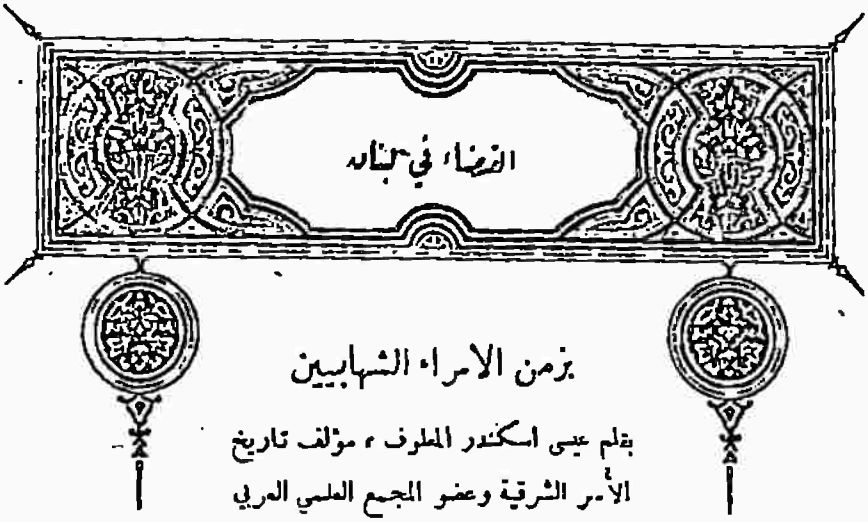

بزمن الامراء الشهابيين

بقلم عيسى اسكندر المعلوف ، مؤلف تاريخ
الأسر الشرقية وعضو المجمع العلمي العربي

٢

الشيخ عبد اللطيف فتح الله

في بيروت ثلاث أسر باسم « فتح الله » . احداها حسينية تنتسم الى ثلاثة افخاذ : آل فتح الله ، والشيخ ، والغندور ، واصلها من غزة هاشم . ولها بقايا في بيروت منهم الشيخ عبد الباسط فتح الله وغيره .

والثانية بنو فتح الله لا نعرف منشأهم . والثالثة آل فتح الله الذين منهم الشيخ عبد اللطيف هذا ، وتعرف اسرته بعده باسم « آل المفتي » الآن . ولا قرابة بين هذه الثلاث ، وهي من المسلمين السنيين .

ومن هذه الثالثة الشيخ عبد اللطيف ابن السيد علي المكنّى بفتح الله المفتي البيروتي . ونرجح ان منها السيد عبد الحي بن ابي بكر بن احمد البيروتي اصلاً الدمياطي مولداً وسكناً ، وهو استاذ الشيخ احمد البربير الذي مرّت ترجمته في الجزأين الماضيين من المشرق (٨ و٩) . ومنها السيد وهبه فتح الله المفتي ولم نقف على اخباره لولا ان يؤرّخ عبد اللطيف هذا ولادة ابنه محمد بديوانه المخطوط عندي سنة ١٢٠١ هـ (١٧٨٦ م) ويسمي والده « المفتي » :

أبا هبة المولى المقدس نعته ومن يجزيل الفضل كل الورى غمرْ
ليهنك نجل بالمحامد وصفه يفوق محيّاهُ البهيّ على القمرْ
اتاك وثير الدهر مبتسم لهُ بمام كثير الخير ارخته اغرّ

. ولد عبد اللطيف في بيروت ، ودرس على علماء عصره ، وترعرع على القضاء والافتاء . ثم درس على اساتذة مشهورين مثل السيد احمد البربير الدمياطي في بيروت ، والشيخ محمد الداموني الخلوتي البكري في عكا ، والشيخ عبد القادر الرافعي في طرابلس ، والشيخ جمال الدين يوسف الشمي ، والشيخ محمد الكزبري محدث الشام في دمشق . ومال الى نظم الشعر .

فبرع في الفقه وعلّم واجاز كثيراً من الفقهاء والادباء منهم السيد محمود شهاب الدين الالوسي البغدادي المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ (١٨٥٣ م) ولديّ كثير من فتاويه واحكامه في اوائل الربع الثاني من القرن التاسع عشر للميلاد .

وله مساجلات ومراسلات نثرية وشعرية مع ادباء عصره وشعرائه منهم مخايل البحري الحمصي ، ونقولا الترك اللبناني ، واستاذه البربير .

وكان قاضياً ومفتياً في بيروت زمناً طويلاً . وتوفي فيها سنة ١٢٦٠ هـ (١٨٤٤م) شيخاً . وأرّخ وفاته الشيخ يوسف الاسير الصيداوي ثم البيروتي بقوله :

هذا ضريح ضمّ سيّد لآل فتح الله بيتي ، شريف .
في عصره قد كان علّامة صاحب فضل ومقام منيف ؛
والآن قد اصبح في برزخ ضيفاً لمولاهُ ، ونعم المضيف !
يرجى له رضوانه دائماً لانه هادٍ تقيّ عفيف .
وعن لسان الحال ارّخ بقي في جنة الفردوس عبد اللطيف ،

ومن آثاره الباقية « مقاماته » في مكتبة المدينة لشيخ الاسلام في بلاد العرب تدلّ على بلاغته وتفننه ، كما اخبرني من وقف عليها . واما « ديوانه » بخط يده ، على الارجح ، فهو في خزانتي في ١٠٤ صفحات بقطع الربع وفيه منظومات جيدة . وقال عنه العلّامة المرحوم الاب لويس شيخو اليسوعي في كتابه « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » (١ : ٢٢) : « وكان شاعراً الا ان شعره مفقود » (اه) لانه لم يقف على ديوانه الذي وقفت عليه . وحبذا الوقوف على بقية آثاره واخباره فاننا بحاجة الى معرفة مثلها بالبحث .

واليك مثالاً من نظمه في القضاء والافتاء هو قوله :

لما تكلمت كان النطق لي شركاً ، والنطق فخّ لصيد الحاذق الفطنِ ،
وصرت في قفص الافشاء محتبساً في اغدّى بسمّ الهمّ والحزنِ .
فقلتُ : اسكتُ علّي ان يخلصني حسن السكوت من الاحزانّ والمحنِ .
فقلتُ : اجهل علماً . ان معرفتي لي آفة ويعملي راحة البدنِ .
وقلتُ : ان متّ احيى في الدُّنى فرحاً من مات عاش بعيش طيّب حسنِ .
فلم يفدني شيئاً ما ذكرتُ سوى زيادة الهمّ ، والمولى يخلّصني .

وكأنه كان يذهب مذهب استاذه البربير بتجنب القضاء والافتاء لما فيها من تسخير الوجدان ومعارضة الحكام ولذلك قال النبي : « من ولي القضاء ذبح بغير سكين » وقال بعضهم : « المفتي موقع عن الله تعالى » . وقال ابن المنكدر : « العالم بين الله وخلقه فلينظر كيف يدخل بينهم » الى كثير من امثال هذه الاقوال الدالة على التهيّب من القضاء عند السلف فكيف بالخلف . وقد قال الشاعر :

ان الفقيه اذا غوى واطاعه قوم غووا معه ، فضاع وضيّعا ،
مثل السفينة ان هوت في لجة غرقت ويغرق كل من فيها معا .

ومن شعر عبد اللطيف هذا قوله في مخايل البحري الحمصي صديقه الذي مدح استاذه البربير ، بعض مقطوعات[1] قال بعدها .

تـ قمتُ الشعر متّخذاً بـه الفاضل البحريّ ، جلّ بفضله ،
وسبكته كالدرّ فيه نظماً ، وقريحتي ليست تجود بمثله ،
قالوا رميت الدرّ في البحر الذي لم يستحقّ لهُ وليس باهله ،
فاجبتُ ان الدرّ هذا اصلهُ ولكلّ شيء قد يعود لاصله .

وقال يمدح استاذه البربير ، وله فيه قصائد ومقطوعات عديدة منها جواب قصيدة جاءته من استاذه المذكور يعاتبه بها لما نوى الذهاب الى دمشق في طلب العلم ، وكان قد انقطع عن الذهاب الى منزله بعد ان كان يتخرّج عليه . فلما اطلع على عتابه نظم هذا الاعتذار ولم يقدمه له بل رجع يتلقى الدرس عليه وعدل عن الذهاب الى دمشق ، وهذا قوله :

---

١) راجع مجلة المشرق في ترجمة آل البحري (٣ : ١٧)

انا عبدٌ لكم في كل وقتٍ ، ولو اصبحتُ علّام الزمانِ ،
فلولاكم لما قد رقّ طبعي ، ولم ادرِ الثناء من المثاني.
فيكفيك الفخار على البرايا باقراري بذلك كلَّ آنِ.

وقال من قصيدة يمدح استاذه المذكور :

الفصيح الشهم ذو النظم الذي خرست نطقاً لديهِ الفصحا ،
احمد البرّ ، كذا البرّ الذي عدّ كعب المدح ابنى منحا ،
فاق في العلم الا انهُ في بحور الفضل حقاً سبحا ،
ذو بروج عاليات ما لها طرف بدر الافق يرمأ طمحا.
لو طمتُ الشر من اوصافه لم احط في عشره متمدحا.

ومن قصائده واحدة يمدح بها احمد باشا الجزار والي عكا ويذكر رجوع عساكر نابليون بونابرت عليها اذ قال :

يا سعد عكا ، اذ رفعت منارها ، والفيل ترفع قدرهُ الآسادُ.
يا فخر عكا في البلاد ، فاضا تاج البلاد وسورها وعمادُ.
وبك احتمت اموالنا وبلادنا ودماؤنا والعرض والاولادُ.
لو انكروا ما قد فعلت فانما انكار فضلك في الندى الاسأدُ.

الى ان قال :

يا ايها الجزار اعناق المدى يا من هو السادات والاجدادُ

ثم يذكر انعطاف الجزار على اهل بيروت بقوله :

هم اهل بيروت الذين تربت منهم بدرّ عطائك الاجيادُ ،
وملكتهم ، ووداهم لك صادق ما ان لهم فيمن سواك وِدادُ ،
لا تنقص فيه ، ولست فيه مشاركاً بل فيك دوماً لم يزل يزدادُ.
ولقد خدمتك مادحاً بقصيدة ، ومديح مثلك في الانام رشادُ.

وقصيدة اخرى صدّرها بمقدمة فصل فيها حروب الفرنسيس لعكا ثم ختمها باشعار قال فيها يصف بسالة الجزار :

تفرّ منه اسود الغاب حيث سطا ، وتختشي سهمه الطير الابابيلُ.
يكرّ كرّ الضواري وهي عادية ، وليس يجهدهُ كدٌّ وتنقيلُ.
لا يعرف الموت ، لو دارت سلانته وعمّ في قومه جرح وتقتيلُ ،

وقال يؤرخ ضريح المرحوم الحاج علي بك ، ابن الوزير الحاج محمد باشا العظم ، المتوفى بالطاعون سنة ١٢٠٧ه والمدفون في الباب الصغير، وكان الناظم اذ ذاك في دمشق :

التقى زاد العارف المستقيم ، والرضا بالقضاء شأن الحليم ،
فعلام القصور عن درك فهم والمنايا تنتال كل عظيم!
ها عليّ ابن الوزير الذي قد ملك الشام بالطريق القويم
اخذته يد القضاء شهيداً فاجاب القضاء بالتسليم.
ولقد قلتُ للرضا : اين تبغي مذ تبدّى يرمْ مثل النسيم
قال: أرخ اروم قبر عليّ كرّم الله وجهه بالنعيم.

ومدح الشيخ عبد اللطيف شعراء كثيرون منهم نقولا الترك من دير القمر مدحه بقصيدتين في سنتي ١٢٢٦ ه (١٨١١ م) وسنة ١٢٢٨ ه (١٨١٣ م) قال من قصيدته الاولى وقد زاره في بيروت :

الا سعياً لبيروت التي حكم رقت اعلى على الزمّ المنيف ،
بولّى شُرّف الانشاء فيه ، واشرق منبر الشرع الشريف ،
همام قام فيه العدل يزهو ، واخمد كل ظلاّم جنوف ،
صفوا ما تبتغون من المزايا وحسن الخُلْق في عبد اللطيف.

ومدحه ميخائيل البحري بقصيدة ذكر فيها استاذه الخوري (المشرق ٣ : ١٧) الى غير ذلك مما لا محل لتفصيله الآن . ولكننا ذكرناه استطراداً . رحمه الله واجزل ثوابه.